العيانية للنزوح ، الرغبة الحالمة في صياغة عالم ملون ومزخرف ، الفدائيون و« الوعد » الفلسطيني الجديد .

الاطفال والحرب : عندما بدأ اطفال البقعة يرسمون هذه الرسوم كان قد مر على حرب حزيران خمسة عشر شهرا ، وعلى معركة الكرامة خمسة شهور . غير أن العمليات العسكرية لم تتوقف منذ ذلك الحين . وقد بدا واضحا من الرسوم ان موضوع الحرب يسيطر على الاطفال بصورة اجمالية ، وهو أمر لا يفسح المجال الا لتفسير واحد ، وهو خضوعهم جميعا لمعاناة الحرب ، على نحو متعب وملح ، جعلهم على هذا القدر من الحساسية تجاهها ، وصبغ رؤيتهم للاشياء بمنظار المأساة التي عاشوها . فمن الظواهر الملحوظة في رسوم اطفال النازحين ، ظاهرة التضخم الانفعالي، وبروز نفسية جماعية على قدر كبير من الحساسية والارهاف تجاه ظروف الحرب الاخيرة . ان سيطرة الرؤيا المتشائمة ، الحذرة والمتوجسة من العدوان الذي ينطوي عليه العالم ، ليست مجرد ظاهرة جانبية ، وانما هي ملحة الحاحا حادا ، حيث يعبر عن ذلك « التضاد » بين موضوعات الرسوم الواحدة . ان هذا التضاد يشكل بنية ماساوية وجدت مداها الطبيعي في نطاق هذه الرسوم (وردة مورقة ، وطائرة معادية تعلوها ، خيمة منفردة كعصفور منكمش على نفسه وطائرة حربية تحلق من فوقها ، سيارة اتوبيس وطائرة معادية تسقط قنابلها حولها) ثم رسوم اخرى منقوشة بالمتناقضات التي لا يستقيم فهمها الا ضمن الاطار الموضوعي لمعاناة هؤلاء الاطفال ، رسوم تجد بها متسعا للسيارات والبيوت والاشجار والطائرات والاسلحة والرايات وثمار التفاح منزوية او مبعثرة في انحاء الورقة . صورة اخرى لمجموعة من النساء ، احداهن تحمل طفلها ثم طائرات تلقي بكرات مدمرة حولهن . ان معظم الاطفال يجسدون المقولة الدارجة لمأساتهم المعاشة ، فما من شيء يمكن ان يبقى ساكنا سالما ، كلما وجد بيت مظلل بخضرة الشجر (التي يحسن الاطفال زخرفتها) كان لا بد من طائرة تحلق وترمي شيئا من اسلحتها المدمرة ، والتي يعرفها الاطفال من تجربة محسوسة او سمعوا عنها مرارا .

لقد اصبح احساسهم بالعدوان وبالخطر مرهفا الى حد كبير ، كما اصبحت قدرتهم على التعبير عن هذا الحس منذرة بتشاؤم مطبوع اثر الحرب ، فرسومهم قادرة على اعطاء هذه الاشكال بصورة اكثر ايجازا وتعبيرا من بقية الاطفال ، لسبب بسيط هو انهم قد خبروها اكثر من غيرهم . ان الطائرات التي تتخذ شكل الخفافيش المرعبة ، الهليكوبتر السوداء ذات الشكل الانقضاضي المتوحش ، السماء المظلمة المنبئة باعتى الشرور ، كأنها شبكة عنكبوت ضخم ، والبيوت المتوحدة التي توحي بالحمائم الوادعة ، كل هذه « الاشكال » كانت حصيلة تكيفهم النفسي مع الحرب ، وحصيلة رؤيتهم الذاتية لاشكال تتضمن مواقف عدائية ، واخرى تعبر عن مواقف محسوسة من الاشكال الاول ، فيجري تعاملهم مع هذه الاشكال ، وكأنها كائنات حية واعية ، فلا غرابة ان نلمس في تعاملهم مع « اشكال » الطائرات — التي يفترض انها مثيرة لخيال الاطفال، ومدعاة لاسترسال حسهم الجمالي، ولحبهم وتوقهم للتحليق — موقفا عدائيا من الناحية التشكيلية ، حيث تبدو كاجسام شيطانية شريرة ، وهم بذلك ينسجمون مع ادراكهم الموضوعي للدور الذي لعبته الطائرات في القتل والدمار والتشرد الذي الحق بهم .

وكما بدا ، فان اطفال المخيم قد خاضوا تجارب مبكرة جدا وقاسية جدا بما لا يتناسب مع سنهم الغضة ، فجميعهم قد عانوا من حرب حزيران بشكل او بآخر ، فظهرت في اعمالهم تذكرات عن نزول الهليكوبتر في الكرامة ، المشاهدة العيانية لسقوط طائرة ، المسير ضمن قوافل النزوح ، الكمون في المغارات والكهوف خوفا من النابالم ، رسوم اشبه « بالخرائط » تروي قصة الخروج من الارض — الوطن ، وذكريات مرعبة عن الموت والاحشاء البارزة ، وتيه الصغار والعطش وحريق العربات على جنبات الطريق .. الخ.

على ان هذه الرسوم لا تكتفي بالتجسيد الساكن لما حدث ، اي انهم ليسوا رواة محايدين ، اذ نجد انهم غالبا ما يخرجون من نطاق السرد والوصف للمعاناة والمعايشة والذكرى الى نطاق اعطاء المواقف والامنيات ، والتدخل « الصريح » ضمن وسائلهم الخاصة ، فيسخرون قدرتهم السحرية في اصطياد جنود الاعداء بأساليب مناسبة، ويكرسونها لصالح الرمز الجديد للانتصار ، للفدائي الذي بدا وكأنه معادل موضوعي في هذا الصراع الراجح منذ أمد بعيد لصالح العدو .